

جمهورية العراق

قسم اللغة العربية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

المادة/ البلاغة علم المعاني

جامعة بابل

المرحلة: الثانية بكالوريوس

كلية التربية للعلوم الانسانية

ستاذ المادة: أ.د. فرحان بدري

٣/المحاضرة الثالثة: علم المعاني ونظرية النظم عند الجرجاني

* النظم عند عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)

جاءت نظرية النظم عند الجرجاني في كتابه دلائل الاعجاز وفيها يرى ان البلاغة والفصاحة لا ترجع الى اللفظ وانما الى النظم، ومنهج الصياغة، اذ يقول: (ومعلوم ان ليس النظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض، والكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف، وللتعليق فيما بينها طرق معلومة، وهو لا يعدو ثلاثة اقسام: تعلق اسم باسم، وتعلق اسم بفعل، وتعليق حرف بهما، فالاسم يتعلق بالاسم بان يكون خبراً عنه او حالاً منه، او تابعاً له صفة، او تأكيداً، او عطف بيان او بدلاً، او عطف بحرف او بان يكون الاول مضافاً الى الثاني، وبأن يكون الاول يعمل في الثاني عمل الفعل، ويكون الثاني في حكم عمل الفاعل له او المفعول، وذلك في اسم الفاعل كقولنا: زيد ضارب ابوه عمراً، وكقوله تعالى: (اخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها) وقوله تعالى: (وهم يلعبون لاهية قلوبهم) واسم المفعول كقولنا: زيد مضروب غلمان، وكقوله تعالى: (ذلك يوم مجموع له الناس) والصفة المشبهة كقولنا: زيد حسن وجهه، وكريم اصله.) [دلائل الاعجاز ٧-٨]

وقد أكد الجرجاني ان ضم الالفاظ يتبع نسقاً قرره النحو فاذا ضمت الالفاظ الى بعضها من دون ان تتوخى فيها معاني النحو لم يكن ذلك نظاماً، وفي هذا يقول ((واعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها، وذلك انا لانعلم شيئاً يبتغيه الناظم بنظمه غير ان ينظر في وجوه كل باب وفروقه، فينظر في الخبر الى الوجوه التي تراها في قولك: زيد منطلق، وزيد ينطلق، ومنطلق زيد، وزيد المنطلق، والمنطلق زيد،

وزيد هو المنطلق، وزيد هو منطلق... وينظر في الجمل التي تسترد، فيعرف موضع الفصل فيها والى موضع الوصل... ويتصرف في التعريف والتنكير والتقديم والتأخير في الكلام محله، وفي الحذف والتكرار....)).

ويقول ((فلا ترى كلاماً قد وصف بصحة نظم او فساده او وصف بمزية وفضل فيه الا وانت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد، وتلك المزية، وذلك الفضل الى معاني النحو واحكامه، ووجدته يدخل في اصل من اصوله ويتصل بباب من ابوابه)).

• الاسس التي تقوم عليها نظرية النظم:

١ - التآزر التام بين اللفظ والمعنى، والقضاء على ثنائية اللفظ والمعنى. قضية اللفظ والمعنى قضية قديمة عند العرب، فاللفظ والمعنى ركنان من اركان القضية، وهذه القضية من اعقد القضايا النقدية القديمة، وقد تناول ارسطو هذه القضية دون ان يرجح احدهما على الآخر، ويفهم من لفظه ان اللفظ علامة على المعنى ووسيلة المحاكاة، وان الالفاظ تتعاون فيما بينها جمالاً وقيماً من حيث دلالتها على المعنى وعلى جوانبه المختلفة، ولقد شغلت هذه القضية النقاد والبلاغيين العرب من قديم الزمان، فمنهم من فضل اللفظ على المعنى مثل ابن رشيق القيرواني ومنهم من قدم المعنى على اللفظ مع الاشارة الى اهمية اللفظ، ومن هؤلاء المرزوقي وابن شرف القيرواني وحمزة العلوي، ومنهم من يقول بالترابط التام بين اللفظ والمعنى ومن هؤلاء قدامة بن جعفر والباقلاني والجرجاني. فعبد القاهر الجرجاني ينكر هذه الثنائية التي شاعت في النقد الادبي بين اللفظ والمعنى، فاللغة في الشعر وحدة متكاملة لاتتجزأ، ومن سوء التقدير ان يعد كل من اللفظ والمعنى عالماً مستقلاً بذاته، ومحاولة ارجاع الفضيلة في الوجود على الاخرة يقول الجرجاني في هذا المجال (أتتصور ان تكون معتبراً مفكراً في حال اللفظ مع اللفظ حتى تضعه بجانبه او قبله، وان تقول هذه اللفظة انما صلحت هاهنا لكونها على صفة كذا؟ ودلالاتها على كذا، ولان معنى اكلام والغرض فيه يوجب كذا لان معنى ما قبلها يقتضي معناها، فان تصورت الاول فقل ماشئت، واعلم ان كل

ماذكرناه باطل، وان لم تتصور الا الثاني فلا تحد عن نفسك بالاضاليل، ودع النظر الى ظواهر الامور...).

وهكذا لم يفصل عبد القاهر الجرجاني بين اللفظ والمعنى فصلاً حاسماً بل شدد على التآزر بينهما، فلا لفظ بدون معنى ((واللفظ عند عبد القاهر لم يكن محدداً في قيمته الصوتية كما لم يكن المعنى عنده قاصراً على الفكرة او المضامين الاخلاقية والفلسفية وغيرها، وانما اللفظ عنده بكل امكاناته الصوتية وغير الصوتية في خدمة المعنى، والمعنى عنده هو كل مانتج عن السياق من فكر واحساس وصورة وصوت)).

٢- تبعية الالفاظ للمعاني لاحداث التآزر والترابط في النظم

فالجرجاني يحاول اثبات ان النظم اللفظي تابع لنظم المعاني وترتيبها في النفس، وفي هذا يقول ب ((الالفاظ خدم المعاني، والمعرفة في حكمها، وكانت المعاني هي المالكة سياستها المستحقة طاعتها فمن نصر اللفظ على المعنى كان كمن أزال الشيء عن وجهته، واحاله عن طبيعته)) ويقول ((وليت شعري، هل كانت الالفاظ الا من اجل المعاني وهل هي الا خدم لها ومصرفة على حكمها او ليست هي سمات لها، واوضاعاً قد وضعت لتدل عليها؟ فكيف يتصور ان تسبق المعاني وان تتقدمها في صور النفس؟ ان جاز ذلك ان تكون اسامي الاشياء قد وضعت قبل ان عرفت الاشياء وقبل ان كانت)) ثم يقول ((ثم ترى الذين لهجوا باحر اللفظ قد ابوا الا ان يجعلوا النظم في الالفاظ، فترى الرجل منهم يرى ويعلم ان الانسان لا يستطيع ان يجيء بالالفاظ مرتبة الا من بعد ان يفكر في المعاني ورتبها في نفسه)).

وعبد القاهر الجرجاني الذي يقول بتبعية الالفاظ للمعاني، لايفضل المعاني على الالفاظ وانما يريد ان يؤكد الترابط بينهما، فالفضل ليس في المتقدم وانما فيهما معاً أي الالفاظ والمعاني من خلال النظم والتأليف، فهو يؤكد وحدة العمل الادبي وجميع عناصره من الفاظ ومعانٍ وصور وبيدع، فالمحسنات البيعية تظهر فضيلتها ومن خلال النظم والتأليف.

وهكذا يمكن القول من خلال النقطتين السابقتين ان الجرجاني لا يقلل من شأن المعاني في بلاغة الكلام وفصاحته، كما ينكر ان يكون للالفاظ مزية في البلاغة من حيث هي الفاظ فالمعول عنده انما هو على النظم، والاسلوب والصياغة.

فاللفظة لاتدل على معنى محدد بل على معنى مجرد، وهي لاتدل على معنى محدد الا من خلال السياق، فهي تكتسب دلالتها منه، فهو الذي يحكم بوجودها وصلاحتها او فسادها ورداعتها فالكلمة او اللفظة لاقيمة لها في لفظها وهي مفردة (لافي جرسها ولافي دلالتها) وانما تأخذ الكلمة قيمتها من خلال وجودها في تركيب لغوي، ولانستطيع ان نحكم عليها، قبل دخولها في سباق، لانها حينئذ وحسب ماترى في نطاق من التلاؤم او عدم التلاؤم، وهذا السياق هو الذي يحدث تناسق الدلالة، ويبرز قيمة معنى على وجه يقتضيه العقل.

وهكذا نجد هب القاهر الجرجاني يقول: ((انّ الالفاظ لاتتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وان الالفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وأشبهه ذلك مما لاتعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك انك ترى الكلمة تروكك. وتؤنسك في موضع ثم تراها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر)) (دلائل الاعجاز ص ٤٠).

الخلاصة

ان تغيير المعنى في النفس يؤدي الى تغيير الصورة الذهنية عنه ويتبعه تغيير صورته في اللفظ الذي نعبر به عنه.

بمعنى ان ترتيب الالفاظ في النطق انما هو ناشئ عن ترتيب المعاني في النفس. وذلك هو النظم الذي يعنيه عبد القاهر الجرجاني. فالنظم اذن أن يكون ترتيب الكلام وانت تنطق به قد صُمِمَ تصميمًا تاماً ليوافق المعاني التي تريد التعبير عنها.

من هنا ندرك السر في قوله سبحانه وتعالى بسم الله الرحمن الرحيم . (الم ذلك الكتاب لاريب فيه) البقرة/ ١-٢. وفي قوله في وصف خمر الجنة (لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون) الصافات ٤٧. لتدرك السر الذي من اجله قدمت كلمة ريب على الجار والمجرور (فيه) وأخرت كلمة (غول) عن الجار والمجرور (فيها) ذلك

لأن قوله (لاريب فيه) انما هو نفي للريب عن القران دون التعرض لغيره من الكتب السماوية . وأما قوله (لافيها غول) ففيه قصد لوصف خمر الدنيا وما فيها من الشرور والآثام.

هذه هي نظرية النظم وعلم المعاني انما هو تطبيق عملي لهذه النظرية.